النبوة في القرآن الكريم:
دراسة في التأصيل المقاصدي والحاجة البشرية

محمد خازر المجالي *

سليمان الدقور **

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة "النبوة" من حيث مفهومها ودلالات ورودها في الاستعمال القرآني، مقارنة بمصطلح "الرسالة".ويقوم على دراسة هذا الاستعمال القرآني مؤصلاً المقاصد العامة الكلية التي رسمها القرآن لدور النبوة، وما يتصل بها من علائق الوحي، ومدى حاجة الناس إلى إرث هذه النبوة، ومحاولة ربطها بواقعنا المعاصر للكشف عن مقاصد شرعية ترشد إلى أهمية تمسك المسلم والناس جميعا بالوحي.

ويسعى البحث إلى الكشف عن مقاصد القرآن الكريم الأساسية في حديثه عن النبوة وأثرها، وبيان أهمية النبوة ودورها في تحقيق صلة إيمان الخلق بالخالق، وإثبات مدى حاجة الناس جميعا إلى النبوة في أثرها المتعلق بوحي القرآن والسنة.

الكلمات المفتاحية: النبوة، الوحي، الرسالة، مقاصد النبوة، مقاصد الوحي، الحاجة إلى النبوة.

Prophethood in the Qur'an: A Study on building foundations of Intents and Human Need

Abstract

This article discusses ‘Prophethood’, its concept and meanings given to it in the Qur'an in comparison with the concept of "Message". The study takes into consideration the general intents which the Qur'an has put forth for the role of Prophethood and its relation to revelation, and to what extent people are in need of the legacy of Prophethood. The article highlights Qur'an’s basic intents when talking about Prophethood, clarifies its importance in strengthening the bond with the Lord, and demonstrating the real need for Prophethood in the revelation of Qur'an and Sunnah.

Keywords: Prophethood, Revelation, Message, Prophethood intents, the need for Prophethood.

---

* أستاذ التفسير وعلوم القرآن، عميد كلية الدراسات العليا- الجامعة الأردنية. البريد الإلكتروني: mkmajali@hotmail.com

** أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد، كلية الشريعة- الجامعة الأردنية. البريد الإلكتروني: s.dgoor@hotmail.com

تم تسلّم البحث بتاريخ ٢/١١/٢٠١٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٧/٥/٢٠١١م.

مقدمة:

الوحي مسألة مهمة في كل الأديان، ويُعَدُّ الإيمان به ركنًا أساسيًا في الاعتقاد. وهو الوسيلة التي من خلالها يبلِّغ الله رسالَته للناس، ويقيم عليهم الحجة به، وهو صلة السماء بالأرض، ورحمة الله ولطفه بعباده، وبهذا يمكننا إدراك أهمية الوحي للإنسانية كلها، وأهمية ما يتصل به من قيم الرسالة والنبوة.

وحاجة الناس إلى الشريعة تفوق حاجتهم إلى الطعام والشراب، يقول ابن القيم: "حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، ... لأنَّ غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب موت البدن وتعطُّل الروح عنه، وأما ما يقدر عند عدم الشريعة ففساد الروح والقلب جملة وهلاك الأبدان، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى ما جاء به الرسول ﷺ، والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالَم صلاح بدون ذلك البتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسم."[1]

فالوحي والنبوة هما الوسيلة التي أراد الله بهما تبليغ البشرية دينها ومنهج حياتها، لتسير في هذه الحياة على هدى ونور، بلا تخبط ولا ضلال، وصدق الله العظيم وهو يبين مهمة رسوله محمد ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦). وحتى ندرك أهمية النبوة وحاجة البشرية إليها، ذكر لنا القرآن الكريم كثيراً من الأمور التي تشكِّل معاً مقاصد الوحي والنبوة ومدى حاجة الناس إليهما، ولكننا لا نتحدث عن حاجتنا إلى وحي جديد أو نبوة جديدة، فقد اكتمل عقدها بمبعث محمد ﷺ، ولكننا نتحدث عن حاجتنا إلى إرث هذه النبوة، وإدراك فلسفتها ودورها ومقاصدها التي تحدد وجهة الإنسان، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (البقرة:١٤٨) وتصنع له شاكلته ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٨٤) وهذا ما سنلقي عليه الضوء في بحثنا هذا إن شاء الله.

[1] ابن قيم الجوزية. **مفتاح دار السعادة**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠١م، ج٢، ص٢.

وقد اتبعنا المنهج الاستقرائي لاستقراء آيات القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع، والمنهج التحليلي في فهمها والنظر فيها، ثم مناقشة هذه النقاط ومحاولة ربطها بواقعنا البعيد عن المنهج الإلهي، وسلكنا كذلك منهجاً استنباطياً في الكشف عن مقاصد شرعية ترشد إلى أهمية تمسك المسلم بل الناس جميعًا بالوحي الإلهي، ثم تبويبها بحسب ما ترشد إليه من أمور حول مقاصد الوحي والنبوة، لتحديد معالم الطريق الذي يقود إلى بر الأمان، لا في الدنيا فحسب، بل في الحياة الباقية القادمة.

وقد يكون من اللافت لانتباه القارئ الكريم أنَّ موضوع النبوة وما يتصل بها هو من الموضوعات التي كثر تناولها وتعددت فيها المؤلفات، والناظر في المكتبة الإسلامية يجد ذلك واضحاً جلياً.

غير أنَّ ما يجب تأكيده هنا لصالح إبراز قيمة هذا البحث فيما يعطيه من بعد جديد في خدمة هذا الموضوع أنَّ الدراسات السابقة على تنوعها وقيمتها الكبيرة، فإنّها تشكل بُعداً تأصيلياً في أطر الدراسات العقدية أو الفكرية أو الفلسفية في سياقاتها العامة والخاصة، وقد كانت صلتها بالقرآن الكريم صلة الاستدلال أو الاستنباط، وهو ما يمثّل علاقة المدلول بالدليل. في حين يحرص هذا البحث على استجلاء المنهج القرآني فيما يرسمه من حدود الدلالات المقاصدية للنبوة، وما يتصل بها من علائق الوحي. وهذا ما نعتقد أنه يعطيه قيمة علمية جديدة تضاف إلى تلك الجهود السابقة على فضلها ومكانتها.

ولأنَّنا نريد البحث في المقاصد القرآنية العامة التي ذكرها لهذا الغرض، فقد وجدنا من المناسب توحيد هذه المعاني جميعها في معنى واحد جامع لها وهو "النبوة"، ذلك أنه ليس من غرضنا الوقوف مع الوحي أو الرسالة أو النبوة كاصطلاحات متفردة ودراستها في الاستعمال القرآني، إنما المراد بيان المقاصد الأساسية لما أشرنا إليه في هذا البحث. ومع هذا فإننا سنفرد مبحثاً في استعمال القرآن لمفردة "النبوة" ومواردها القرآنية، وعلاقتها بمفردة "الرسالة"، بقصد التأصيل للاستعمال القرآني.

أولاً: "النبوة" و"الرسالة" المفهوم والدلالات القرآنية

١. في الدلالة اللغوية والشرعية:

كثيراً ما نجد اختلافاً في تحديدات العلماء لمعنى النبوة والرسالة، وباعث ذلك هو الاختلاف في تحديد الدلالات اللغوية من جهة، والدقة في تحديد الاستعمال القرآني لهاتين المفردتين من جهة أخرى.

فالنبوة مأخوذة من النَّبأ، وهو الخبر، ولذلك فقد وردت في كلمة (نبي) قراءة أخرى بالهمز (نبيء)،[٢] وقيل هو الأصل، ومن هنا فالنبيّ مُخْبِرٌ ومُخْبَر: فهو مُخْبِرٌ عن الله أمره ووحيه، قال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩) ومُخْبَرٌ بمعنى أن الله أخبره، قال تعالى: ﴿قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (التحريم: ٣).

وقيل بأن هذه الكلمة مشتقة من النبْوَة؛ أي الرفعة أو المكان المرتفع من الأرض، فسمي نبيًا لرفعة محله عن سائر الناس المدلول عليه بقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٧)، فالنبوة والنباوة الارتفاع، وكلا المعنيين مناسب للمعنى الاصطلاحي وهو: اصطفاء الله عبدًا من عباده بالوحي إليه.[٣]

أما الرسالة فهي من الإرسال الذي هو التوجيه، قال تعالى حاكياً عمّن أرسلتهم ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ (النمل: ٣٥) فالرسل سمّوا

---

[٢] وهي قراءة نافع بالهمز، انظر هذه الكلمة حيثما وردت في القرآن، في كتب القراءات ومنها:
- راجح، محمد كريم. القراءات العشر المتواترة، المطبوع بهامش القرآن الكريم، دمشق: دار القلم، ٢٠٠٧م. انظر الآيات الكريمة الآتية: (البقرة: ٢٤٦)، (آل عمران: ١٤٦، ١٦١)، (المائدة: ٨١).

[٣] الأصفهاني، الراغب. **المفردات في غريب القرآن**، بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٩٩٨م، ص٤٨٢. انظر أيضاً:
- ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، بيروت: دار الفكر، ط١، ١٩٩٨م، ج٦، ص٣٦١.
- حبنكة، عبد الرحمن حسن. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، دمشق: القلم، ط٧، ١٩٩٤م، ص٢٦٦.
- الأشقر، عمر سليمان. **الرسل والرسالات**، عمّان: النفائس، ط٥، ١٩٩٤م، ص١٣.
- بناني، سميرة عبد الله بكر. **جهود الإمامين ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود**، مكة المكرمة: أم القرى، ط١، ١٩٩٧م، ص٣٦٧.

بذلك لأنهم وُجِّهوا من قبل الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ (المؤمنون: ٤٤) وهم مبعوثون برسالة معينة مكلَّفون بحملها وتبليغها ومتابعتها.[٤]

٢. في الفرق بين النبي والرسول:

وسوف نعرض هنا صورة توصيفية لخلاصة ما ذكر في معنى اللفظتين لنحدد بعد ذلك العلاقة بينهما في ضوء الاستعمال القرآني. يقول الدكتور حسن عتر: "اختلف العلماء في الفرق بين الأنبياء والرسل على قولين رئيسيين:

أحدهما: أنه لا فرق، فالنبي رسول، والرسول نبي؛ إذ الرسولُ مأخوذ من تحمُّل الرسالة والنبي مأخوذ من النبأ. ولعل أصحابَ هذا الرأي نظروا اليهما من جهة اللغة فحسب، فعدُّوا الرسول اسم مفعول والنبي اسم فاعل، فلم يجدوا فرقاً فسووا بينهما.

ثانيهما: أنهما مختلفان، فإن اختلاف الأسماء يدل على اختلاف المسميات، وهو الراجح -في نظرنا- ويدل له قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج: ٥٢) فإن عطف نبي على رسول يدل على المغايرة بينهما."

وقد انصرف أصحاب هذا الرأي في تحديد الفرق بين النبي والرسول إلى أقوال:

الأول: أن الرسول مَن بعثه الله تعالى بشرع جديد، والنبي يعمّه، ومن بعثه الله لتقرير شرع سابق.

الثاني: أن الرسول من بعثه الله إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم، وإن لم يكن جديداً في نفسه كإسماعيل -عليه السلام- إذ بُعِثَ إلى جرهم. والنبي يعمّه ومَن بُعث بشرع غير جديد كذلك.

الثالث: إن الرسولَ من له تبليغ في الجملة وإن كان بياناً وتفصيلاً لشرع سابق. والنبي من أوحي إليه ولم يؤمر بتبليغ أصلاً.

---

[٤] الأشقر. **الرسل والرسالات**، مرجع سابق، ص١٤. انظر أيضاً:
- بناني. **جهود الإمامين ابن تيمية وابن القيم في دحض مفتريات اليهود**، مرجع سابق، ص٣٦٧-٣٦٨.

الرابع: الرسول مِن الأنبياء من جمع إلى المعجزة كتاباً منزلاً عليه، والنبي من لا كتاب له.

الخامس: الرسول من له كتاب أو نسخ في الجملة، والنبي من لا كتاب له ولا نسخ.

السادس: أن الرسول من يأتيه الملك بالوحي يقظة والنبي من يأتيه الوحي ولو مناماً. وهذا يقضي أن بعض الأنبياء لم يوح إليه إلا مناماً فحسب، وهو بعيد ولا دليل عليه.

وذهب جماهير العلماء إلى أن الرسول من أوحي إليه وأمر بتبليغ الأحكام، وإن النبي أعم منه، فيشمل كل من أوحي إليه، سواء أمر بالتبليغ أم لم يؤمر.

فأنت ترى أن النبي والرسول يشتركان في تلقّي الوحي الإلهي. لكن لا يشترط في النبي أن يؤمر بالتبليغ، فالنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق.

ثم اصطلح الدكتور عتر على تعريف خاص به يرى أنه جامع مانع؛ إذ يقول: (الرسول رجل حر كامل العقل اصطفاه الله من ذوي الخُلق القويم فأوحى إليه وأيده بمعجز وأمره بتبليغ شرع). ويصدق هذا التعريف على النبي على أن نقول فيه "سواء أمره بتبليغ شرع أو لم يأمره."

وهذا التفريق هو الحق في رأينا. وهو أسلم الأقوال وأبعدها عن الاعتراضات التي ترد على غيره.[5] وسنرجئ التعليق هنا إلى حين الانتهاء من بيان الاستعمال القرآني الذي سيجلي لنا المسألة بوضوح.

٣. في الاستعمال القرآني:

لما لم يكن من هدف البحث أو منهجه التأصيل الموضوعي للاستعمال القرآني، بما يوجب دراسة جميع الآيات وفق المنهج التحليلي التفصيلي، لاستجلاء دلالات النص في السياق اللغوي الداخلي أو الظرفي الخارجي، فقد اكتفينا في هذا العنوان بالكشف عن الدلالات السياقية الكلية في الاستعمال القرآني لمصطلح "النبوة" و "الرسالة" وذلك وفق التوصيف الآتي:

[5] عتر، حسن ضياء الدين. **نبوة محمد في القرآن**، حلب: دار النصر، ط١، ١٩٣٧م، ص١٧-١٨ بتصرف.

أ. النبوة في الاستعمال القرآني:

ورد الجذر (نبأ) في الاستعمال القرآني (١٦٠) مرة في سياقات محدودة وصيغ متعددة تصل إلى(٤٢) صيغة، عدد سياقات هذا الاستعمال (٤) سياقات، وفق الدلالات التالية:

- النبأ بمعنى الخبر ذي الفائدة العظيمة التي يحصل به علم أو غلبة ظن، وورد في (٢٩) مرة في مثل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ (يوسف: ١٠٢) وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾ (ص: ٦٧).
- الإنباء والإخبار بالشيء؛ أي تبليغه والإخبار بوقوعه أو حصوله، وورد (٥١) مرة، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ (الحجر: ٥١) وقوله تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٣).
- كل منبأ رفيع القدر والمكانة، وهو من يبعث بالخبر، وورد هذا المعنى (٧٥) مرة، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).
- كل منبأ رفيع القدر والمكانة، وهو من يبعث بالخبر، وورد هذا المعنى (٧٥) مرة، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٤٦).
- النبوة التي هي سفارة بين الله وبين ذوي العقول الذكية، وقد ورد هذا المعنى (٥) مرات في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٧٩).

ويظهر لنا من الترتيب الذي جاءت فيه هذه الآيات الخمس المشتملة على "النبوة والكتاب والحكمة" العلاقة المنهجية الوثيقة بين هذه الأركان الثلاثة التي تؤكد حقيقة الوحي والرسالة المتشكلة من: النبوة: التي هي التشريف بالتكليف لتبليغ أمر الوحي. والكتاب: الذي هو مادة الوحي وأحكامه. والحكم: الذي معناه: القضاء على الشيء بالشيء، بأن ذلك محتاج إلى الحكمة والقوة والعزم.

ب. "الرسالة" في الاستعمال القرآني:

ورد الجذر (رسل) في الاستعمال القرآني (٤١٨) مرة، في سياقات محددة وصيغ متعددة تصل إلى (٥٣) صيغة، وعدد سياقات هذا الاستعمال (٤) سياقات، وفق الدلالات الآتية:

- البعث بالشيء وهو مقابل الإمساك، وورد هذا المعنى (٣٥) مرة في مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣).
- والإرسال يكون: للإنسان، وللأشياء المحبوبة؛ كإرسال الملائكة والمطر، وللأشياء المكروهة؛ كإرسال الشياطين. ويكون الإرسال بأمور: بالتسخير؛ كإرسال الريح والمطر. وببعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل. وبالتخلية وترك المنع نحو قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴾ (مريم: ٨٣)؛ أي خلّى الله بينهم وبين ذلك وتركهم ليفعلوه. والمبعوث نفسه، ورد هذا المعنى (٣٦٨) مرة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴾ (هود: ٧٧) والمبعوث في القرآن يرد على أنواع عدة: رسل الله، وهم قسمان: الملائكة، والأنبياء. والشياطين. والإنسان نفسه؛ قال تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ (طه: ٤٧) وقوله تعالى: ﴿ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ﴾ (يوسف: ٦٣) المخلوقات المسخرة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ (المرسلات: ١)
- من قام بالبعث أو أمر به، وورد هذا المعنى (٥) مرات في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴾ (القصص: ٤٥).
- الرسالة التي هي موضوع ما يُبعث به الرسول ومضمونه، وورد هذا المعنى (١٠) مرات في مثل قوله تعالى ﴿ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ ﴾ (الأعراف: ٦٢).

ت. أبعاد ودلالات

ورد في الاستعمال القرآني تقرير مفهوم خاص (للنبوة) ومفهوم خاص (للرسالة)، ويظهر ذلك من خلال هذا التنوع وتعدد سياقات كل مفردة من هاتين المفردتين. كما ورد في الاستعمال القرآني أيضاً تقرير مفهوم خاص "للنبي" وكذلك "للرسول". وهناك سياقات محددة تبين أنواعاً للاشتراك بين دلالة هاتين اللفظتين وذلك على النحو الآتي:

- إطلاق لفظ الرسول والنبي: فهناك ممن كلفهم الله بالرسالة وأطلق عليهم اسم "الرسول" فحسب مثل نوح عليه السلام.

- وهناك من أطلق عليه اسم "النبي" فحسب وذلك مثل: يحي وهارون عليهما السلام.

- وهنالك من أطلق عليه اسم "الرسول" و"النبي" معاً، وذلك مثل: موسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥١)، وإسماعيل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤)، ومحمد عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

- إطلاق الفعل "أرسل": في حال إرسال الرسول والنبي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ (الحج: ٥٢). أو إرسال النبي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ (الأعراف: ٩٤). أو إرسال الرسول، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤). فالرسول مرسل، والنبي كذلك مرسل.

وهناك بُعد واضح في دلالة لفظتي "النبي" و"الرسول" في الاستعمال القرآني، يظهر من خلال الاستقراء، ويمكن تحديد ذلك من خلال بعدين اثنين: البعد الأول: أن هاتين الكلمتين إذا افترقتا في موردها في الآيات القرآنية اجتمعتا في معنى واحد هو: من أوحى الله إليه بتبليغ رسالته، وإذا اجتمعتا في سياق واحد افترقتا في المعنى. والبعد الثاني: أن التفريق بينهما في حال الاجتماع يأخذ شكلين اثنين:

الشكل الأول: اجتماعهما في وصف نبي واحد، في سياق واحد ،كما هو الحال في حق "موسى" أو"إسماعيل" عليهما السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥١)، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤). فقد وصفا بالنبوة والرسالة، وهذا ليس فيه معنى يفيدنا هنا في توضيح دلالتهما القرآنية.

الشكل الثاني: اجتماعهما في حق شخص واحد، في سياقات مختلفة، كما هو الحال في شأن رسولنا الكريم محمد ﷺ، وهذا هو ما يظهر الدلالة القرآنية في استعمالهما على نحو لافت؛ إذ ظهر من خلال تتبع ما يصل إلى (٣٠) آية في استعمال القرآن لكلمة النبي والرسول في حقه ﷺ وأخذ آيات سورة الأحزاب مثلاً؛ إذ ورد فيها ذكره ﷺ بالنبي (١٧) مرة، فهي أكثر سورة في القرآن استأثرت بذلك، وكذلك لفظة الرسول؛ إذ وردت (١٣) مرة، ظهر أن استعمال القرآن لـ"النبي " يأتي في سياق الحديث عن التشريعات والجوانب التطبيقية للأحكام، في حين يأتي استعماله لـ"الرسول " في سياق الحديث عن التأصيل والتأسيس لدوره ووظيفته ومكانته.

وفي ظلال ما ذكرنا من معنى النبوة والنبي بدلالة المكان المرتفع والنبأ، ندرك جهتها ومصدرها وارتباط الخلق فيها بالخالق، ومدى حاجة الناس إليها؛ إذ خبر السماء من جهة، والسمو والارتقاء بالبشرية من جهة أخرى، وهو الأمر نفسه الذي نلحظه من معنى الرسالة والرسول. وهذا ما نحاول دراسته في بحثنا؛ إذ نفصّل فيما هو قادم أهم ما يمثل حاجة الناس إلى النبوة وأثرها ورسالتها من خلال مقاصدها القرآنية.

ثانياً: الحاجة إلى النبوة ورسالتها من خلال مقاصدها القرآنية

١. النبوة طريق لهداية البشرية إلى الإيمان بالله ولتحقيق الخير والسعادة الحقيقية:

لا شكّ في أنَّ هذه هي الغاية الأسمى والأهم، وهي التي تنطق بها آيات القرآن العظيم؛ إذ مناط التكليف والمسؤولية والمحاسبة إنما يدور على هذه الجزئية في حاجة الناس

إلى النبوة؛ إذ تبصّرهم بعبادة الله وحده، ورد الناس إلى فطرتهم التي فطرهم الله عليها، والعيش في ظل منهج الله كما يريد الله؛ عقيدة وشريعة وأخلاقًا، ظاهرًا وباطنًا، سرًا وعلانية، وهي السعادة الحقيقية في تعلق القلب بالله، وفي عمل الخير ابتغاء وجه الله، وفي أن تكون الحياة كلها لله، وصدق الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣).

وتتحقق هداية البشرية إلى الإيمان بالله في بُعدين اثنين: البعد الأول: بناء هذا الإيمان من خلال الإرشاد إلى ربوبية الله تعالى وألوهيته؛ فالنظر في ملكوت الله يقود الإنسان إلى التفكر، والتفكر يقود إلى الإيمان الحق الثابت المنبثق عن قناعة تامة. ولعل إرشاد الناس إلى مثل هذه الأمور يُعدُّ من أول مهام الأنبياء عليهم السلام، حين أرشدوا الناس إلى عبادة إله واحد، ولا يمكن أن تكون العبودية للإله إلا بعد معرفة ربوبيته واستشعارها، فهي المسألة التي أرشد الأنبياءُ الناسَ إليها، أنّ من كان هذا صنعه وهذه عظمته وهذه دقة خلقه، أيعقل أن يكون هناك خالق غيره ورب غيره ومعبود غيره؟!

ولعل النظر في بعض الآيات المكية لا سيّما المتحدثة عن الكون وخلقه، والداعية إلى التفكر في إبداعه وعظمته، تسلم الإنسان إلى الاقتناع بهذه الحقيقة الناصعة.

ويمكننا القول إن الصورة بيّنة واضحة أيضًا فيما قصّه الله علينا في القرآن الكريم من قصص الأنبياء في معرض مناقشتهم لأقوامهم في هذا الشأن وإقامة الحجة عليهم.[٦]

ولا بدّ من أن نذكّر هنا بضرورة بناء الصلة بين الإيمان بالله من جهة، والإيمان بالأنبياء والرسل من جهة أخرى، فزيادة على أن النبوة طريق للإيمان، فلا يجوز التفريق بين الله ورسله من ناحية ادعاء الإيمان بالله وجحود أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١).

---

[٦] أبو بكر الجزائري، **منهاج المسلم**، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٧٩م، ص٣٥. الدليل الأول.

فالآيتان تتحدثان عن كفر أهل الكتاب من يهود ونصارى حين كفروا بنبوة محمد ﷺ، فكان ذلك كالكفر بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة، ومن ثم الكفر بالله تعالى. فهم لم يكفروا في الأصل بكل بالأنبياء والرسل كلهم وبالكتب جميعها، ولكنهم بكفرهم ببعضهم كفروا بالكل؛ لأن المرسِل والمنزِّل واحد وهو الله تعالى. وهم بهذا الإيمان الجزئي قد فرّقوا بين الله ورسله، ومعلوم أن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام، كما أن النصارى آمنوا بعيسى وكفروا بمحمد عليهما الصلاة والسلام.[٧]

وفي سياق آخر يفيد المعنى نفسه، قال الله سبحانه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥)، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٢٣)، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٤١)، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٦٠)، وقال: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لَـَۡٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٧٦).[٨] فكل قوم إنما كذبوا رسولهم، إلا أن التكذيب بواحد يُعَد تكذيبًا بالجميع.

أما البعد الثاني فيتحقق في انعكاس هذه التصورات الإيمانية سلوكاً عبادياً؛ فقد بيّن القرآن في كثير من آياته ذلك الخطاب المشترك بين الرسل جميعًا في إرشاد أقوامهم إلى عبادة الله وحده، ومن هذه المواضع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥). بل بين الخطاب القرآني أن كل رسول أرسل بلسان قومه ليحسن البيان، وهو المقصود الرئيس، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ (إبراهيم: ٤).

إن للأنبياء ومن تبعهم دورًا مهمًا في ترسيخ العبودية لله، ومن ثم جلب الخير للبشرية وتربيتها، وفي هذا يقول الرسول ﷺ: "إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل

[٧] الشوكاني، محمد بن علي. **فتح القدير**، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، المنصورة: دار الوفاء، ط١، ج١، ص٦٢٤.

[٨] هم قوم أرسل الله إليهم شعيبًا عليه السلام كما بينت الآية التالية: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (الشعراء:١٧٧)، ولم يقل ربنا عز وجل (أخوهم شعيب) كما هو الوارد في سياق الحديث عن الأنبياء الآخرين الوارد ذكرهم في السورة، ذلك أن شعيبًا عليه السلام لم يكن منهم في النسب، إنما هو من مدين، ولذلك لما ذكر الله مدين قال (أخوهم شعيب). انظر:

- الشوكاني. **فتح القدير**، مرجع سابق، ج٤، ص١١١.

أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم."[9] وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال: "إن الله بعث نبيه ﷺ فدعا الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، فاستجاب من استجاب، فحيّ من الحق ما كان ميتًا، ومات من الباطل ما كان حيًا، ثم ذهبت النبوة، فكانت الخلافة على منهاج النبوة."[10]

ولا شكّ في أن هناك تناسقًا واضحًا في ربط السعادة بالعبادة، ولا بدّ من أن تكون هذه العبادة صحيحة، غايتها سامية، بالتوجه إلى الله سبحانه، ولو كانت العبادة لغيره لكان التردي إلى أسفل سافلين. إن الرسالة السماوية تسمو بالإنسان وتوقظ فيه حس المسؤولية، وما مهمة المعلم إلا الإرشاد والتعليم، يقول ابن تيمية: "والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة، فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب."[11]

ويقول صاحب المنار: "إن موضوع الرسالة تعليم وإرشاد إلهي يملك الوجدان، وتذعن له النفس بالإيمان، فيكون هداية تزع صاحبها عن الباطل والشر، وتوجهه إلى الحق والخير."[12] ويقول: "إن الدين هو الهداية العليا للإنسان التي أفيضت على بعض خواصه وهم الرسل من أفق أعلى من عقله وحواسه، فكانت أستاذًا مرشدًا له فيهما لكيلا يستعملهما فيما يضره في سيرته الشخصية والاجتماعية، وهاديًا له إلى السعادة الأخروية."[13]

والحقيقة أن هذه المسألة واضحة في وصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومنهم نبينا محمد ﷺ فقد قال الله فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا

[9] مسلم بن الحجاج النيسابوري. **الجامع الصحيح**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٣م، ح١٨٤٤، ص١٧٤٣.

[10] ابن حنبل، أحمد. **المسند**، الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م، ح٢٣٧٢٥.

[11] ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **كتاب النبوات**، تحقيق: عبد العزيز الطويان، المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ١٩٩٩م، ص٤٤٧.

[12] عبده، محمد، ورضا، محمد رشيد. **تفسير القرآن الحكيم، المشهور بتفسير المنار**، بيروت: دار المعرفة، ط٢، ج١، ص٢٢٢.

[13] المرجع السابق، ج١، ص٢٢٤، ج٢، ص٢٩٤-٢٩٥، ج٨، ص٢٧٥-٢٧٧.

إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٤٥-٤٦)، وقال: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٠). بل وصف الله إرسال النبي محمد ﷺ على أنه مِنّةٌ من الله عليهم، بعد أن كانوا في ضلال مبين فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤)، وفي هذا يقول شارح العقيدة الطحاوية معتمدًا على هذه الآية: "إرسال الرسل من أعظم نعم الله على خلقه، وخصوصًا محمد ﷺ."[١٤]

وقال سبحانه عن الرسل: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٨-٤٩).

وفي آية جامعة لأمور عدة متعلقة بالرسل وصفاتهم يقول سبحانه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة: ٢١٣)، فقد كان الناس على الدين الحق؛ على التوحيد، إلى أن اختلفوا، فعندها بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، ودل على ذلك قوله سبحانه (فيما اختلفوا فيه)،[١٥] ودل عليه أيضًا قول الله في موضع آخر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ (يونس:١٩)، ووصف الأنبياء بثلاث صفات: كونهم مبشرين، ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، وظاهر الآية -كما يقول الرازي- يدل على أنه لا نبيَّ إلا معه كتاب منزل فيه بيان

---

[١٤] ابن أبي العز الحنفي. **شرح العقيدة الطحاوية**، بيروت: المكتب الإسلامي، ط٦، ١٩٨٠م، ص١٦٧.

[١٥] القرطبي، أبو عبد الله. **تفسير الجامع لأحكام القرآن**، الرياض: مكتبة الرياض الحديثة، ١٩٩٠م، ج٣، ص٣٠-٣٣. انظر أيضاً:

- الرازي، الفخر. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، بيروت: دار إحياء التراث، ط٢، ١٩٩٩م، ج٦، ص١١.

الحق، طال ذلك الكتاب أم قصر، ودوّن ذلك الكتاب أم لم يدون، وكان ذلك الكتاب معجزًا أو لم يكن كذلك.[١٦]

وفي آية أخرى شبيهة يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)، والبينات هنا هي المعجزات والشرائع الظاهرة، والمراد بالكتاب هو جنسه، فيدخل فيه كتاب كل رسول، أما الميزان فهو العدل؛ أي أمرهم الله بالعدل حين بيَّن أسبابه وموجباته.[١٧]

وقد وصف الله الرسالات والكتب بأنها نور وهدى، فالنبوة هي وسيلة تبليغ هذا الخير الإلهي للبشرية، تهدي به، قال سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة: ١٥-١٦)، وقل مثل ذلك في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد ورد عن التوراة مثلًا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال عن الإنجيل المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٦)، وهكذا.

ومن أسماء هذه الكتب وأوصافها ندرك -عملياً وبوضوح- أن الأنبياء هم المرشدون القائدون لهذه البشرية إلى بر الأمان، فلم تأت هذه الأوصاف عبثًا، فالنور والهدى يقابلهما الظلام والضلال، والبشرية بحاجة في كل وقت إلى هذه المعاني السامية.

وقد شبه الرسول ﷺ حال الناس معه في استجابتهم لدعوته بقوله: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت

---

[١٦] الرازي. **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، مرجع سابق، ج٦، ص١٤-١٥.

[١٧] الشوكاني. **فتح القدير**، مرجع سابق، ج٥، ص١٧٥.

كلأ. فذلك مثل مَنْ فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به."[١٨]

ولا شكّ في أن العلماء قد ركزوا في كلامهم على موضوع العبادة كثمرة لهذا الإرشاد وهذه الهداية، لأن الإنسان عابد على كل حال، فهي الفطرة التي فُطر الإنسانُ عليها بأنه مشدود إلى نزعة وقوة، ولكن بعض الناس لا يهتدون إلى سواء السبيل، فنراهم عابدين لغير الله، أو حيارى، وهذا هو الشقاء بعينه، والضلال المبين، وليس هذا بالشيء الذي يحبه الله للإنسان، إنه يحب أن يراه عابدًا له، ساميًا بمبادئه وأخلاقه وتوجهه، متزنًا في هذه الحياة القصيرة، فائزًا بها وبالدار الآخرة، وهذه هي السعادة الحقيقية التي يطمئن صاحبها لها، ولها آثارها الإيجابية في حياته الدنيا، فضلًا عن الفوز العظيم في الآخرة.

ولو ترك الناس من دون بيان وإرشاد وأوكلوا لأنفسهم، لظلوا في الضلالات بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم، فالإنسان يسعى إلى عدة أمور كتحقيق الكمال النفسي بالمعرفة وبلوغ كمال الخلق الإنساني عن طريق الإيمان القلبي بالله وصفاته، والاعتراف اللساني لله بربوبيته وألوهيته، وبلوغ السعادة الدائمة الخالدة بابتغاء مرضاة الله، وهذه كلها لا يمكن تحقيقها إلا عن طريق نبي مرشد.[١٩]

إن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطًا لما يريده الله من البشر، كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة لله من مصدر واحد.[٢٠]

وثمة مسألة أخرى مرتبطة بالإرشاد، إنها التربية النبوية التي تؤهل الأتباع لقيادة البشرية، فقد حول النبي محمد ﷺ -بالنور الذي أتى به وفي زمن يسير- قومًا غارقين في الأمية والبداوة إلى أساتذة العالم وسادته، وما ذلك إلا علامة واضحة على الفرق بين

---

[١٨] البخاري، محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، المطبوع مع فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دمشق: دار ابن كثير، ط٥، ١٩٩٣م، ح٧٩. انظر أيضاً:
- ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري**، مرجع سابق، ج١، ص١٧٥.
- مسلم. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ح٢٢٨٢.

[١٩] حبنكه. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص٢٧١، ٢٧٥.

[٢٠] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ط١٠، ١٩٩١م، ج٤، ص٥١٠.

منهجي التلقي؛ منهج الله ومناهج العبيد، فمنهج الله، حياة وارتقاء وانقلاب إلى الأفضل والأسمى، وهيهات أن تبلغه مناهج العبيد.

٢. النبوة سبيل تأكيد المعجزات الربانية واستمرار المعجزة القرآنية:

ثمة علاقة مشاكلة بين أثر المعجزات ودورها في إثبات صدق الأنبياء من جهة، وحاجة الأنبياء إلى هذه المعجزات الدالة على صدقهم من جهة أخرى، وقد أفرزت هذه العلاقة أهمية المعجزات عموماً ومعجزة القرآن بشكل خاص.

لا شكّ في أن هناك حِكَماً كثيرة وراء المعجزات التي أيد الله بها رسله، وهي أمور خارقة للعادة يجريها الله على أيدي رسله تأييدًا لهم وتكون مقرونة بالتحدي، أن يأتوا بمثلها،[٢١] ولكن هيهات، فإن عجز الناس عن ذلك بينما هؤلاء الأنبياء البشر المعروفون لديكم يأتون بها، لهي العلامة الواضحة أن من وراء هذه المعجزات إله عظيم يريد منهم أن يؤمنوا بهذا الرسول، وبرسالته التي جاء بها من عند الله. يقول بديع الزمان النورسي: "يبين القرآن الكريم أن الأنبياء عليهم السلام قد بعثوا إلى مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة يقتدى بهم، في رقيهم المعنوي، ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية، ونصّبهم روّادًا للبشرية وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضًا؛ أي إنه يأمر بالاقتداء بهم واتّباعهم اتّباعًا كاملاً في الأمور المادية والمعنوية؛ إذ كما يحض القرآن الكريم الإنسان على الاستزادة من نور الخصال الحميدة التي يتحلى بها الأنبياء عليهم السلام، وذلك عند بحثه عن كمالاتهم المعنوية، فإنه عند بحثه عن معجزاتهم المادية أيضًا يومئ إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم، ويشير إلى حضه على بلوغ نظائرها...."[٢٢]

والنورسي هنا يتحدث عن العوامل النفسية المصاحبة للإنسان في حال أن تكون هذه المشاهد من معجزات الأنبياء، التي تجري أمامه، ويحاول تقليدها، ولكن هيهات،

---

[٢١] حبنكه. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص٣٠٠.

[٢٢] النورسي، بديع الزمان. **الكلمات**، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، استانبول: دار سوزلر، ط١، ١٩٩٢م، ج١، ص٢٧٩.

فهي معجزة، ولا شكّ في أن ذلك سيقوده -إنْ أعمَل عقلَه ومنطقه- إلى الإيمان الحق، تمامًا كما هو الحال مع سحرة فرعون والمؤمنين بالأنبياء في كل عصر.

نجد أن من المهم هنا الإشارة إلى أن للمعجزة دورًا مهمًا في تأييد الأنبياء في أداء رسالاتهم، فإضافة لكون النبي مؤيدًا من عند الله، فإن المعجزة تيسر له دعوة الناس والإيمان به؛ إذ الناس مجبولون على حب معرفة الدليل، فإذا عرفوه ساعد ذلك في انقيادهم للنبي، ومن ثمّ أمكن للنبي أن يؤدي رسالته، وإن نظرة على معجزات الأنبياء عليهم السلام لتبين هذه المسألة، وقصة موسى عليه السلام خير شاهد على ذلك.[٢٣]

وثمة نقطة أخرى أشار إليها الميداني، وهي أن كثيرًا من الحقائق العلمية التي لا غنية عنها لإصلاح الناس وتقويم سلوكهم في الحياة، والتي يبلّغها الرسل المؤيدون بالمعجزات للناس لا يمكن للبشر أن يتعرفوا عليها بأنفسهم بالوسائل العادية،[٢٤] وهو يشير إلى أمور الغيب.

ولا شكّ في أن البشرية الآن بعيدة العهد عن معجزات الأنبياء ليؤمنوا، ولم يبق إلا معجزة واحدة هي القرآن العظيم، فهو المعجزة الباقية للرسالة الخاتمة، ولم يكن معجزة حسية مادية زائلة بزوال من جرت على يديه ومن رآها من قومه. وإننا نلمس هذا فيما قاله ﷺ: "ما من نبي إلا وآتاه الله من الآيات ما على مثله آمن البشر، وإنني أوتيت وحيًا، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة."[٢٥]

فالمعجزة هنا هي بإظهار صدق النبي محمد ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار العجز عن معارضته في معجزته الخالدة: القرآن.[٢٦]

والذي نؤكده هنا في هذا المبحث هو أن العلاقة بين المعجزة والنبوة في نبوة محمد ﷺ مختلفة عن غيرها من العلاقات بين الأنبياء الآخرين ومعجزاتهم، فإذا كان الأنبياء محتاجين

[٢٣] انظر مثلاً: سورة طه، الآيات: ٢٣-٤٢. وغيرها.
[٢٤] حبنكه. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص٢٧٦.
[٢٥] البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ح٤٩٨١. انظر أيضاً:
- مسلم. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ح٢٣٩.
[٢٦] القطان، مناع. **مباحث في علوم القرآن**، الرياض: المعارف، ط٢، ١٩٩٦م، ص٢٦٥-٢٦٦.

لمعجزاتهم إثباتا لنبوتهم وتأييدا لصدقهم، فإن الأمر تعدى ذلك في حق النبي محمد ومعجزته القرآن الكريم، فالقرآن محتاج لفهم محمد وتفسيره وتطبيقه لقيمه وتشريعاته، فكما كان القرآن دليلاً على صدق محمد في نبوته، فنبوة محمد دليل القرآن في الفهم والتطبيق والتأسي، وهو ما تحتاجه البشرية اليوم عنوانا على أهمية النبوة ومكانتها في النفس الإنسانية.

٣. النبوة طريق لترشيد الفلسفة والعقل والهوى:

يقول النورسي: "في تاريخ البشرية منذ القدم تياران عظيمان وسلسلتان للأفكار مؤثران في حياة الناس، (سلسلة النبوة والدين، وسلسلة الفلسفة والحكمة). وإذا اتحدت السلسلتان انتعشت الإنسانية، ومتى انفرجت الشقة بينهما احتشد النور والخير حول سلسلة النبوة والدين، وتجمع الشر والضلال حول سلسلة الفلسفة."[٢٧]

ولا بدّ هنا من أن نقرر أهمية النبوة التي هي وسيلة لنشر الدين في ضبط مفاهيم الفلسفة والحكمة، وهي مسألة تاريخية قديمة في صراع الفلسفة مع الدين، فلو غاب الدين وغابت النبوة فالساحة للفكر البشري والفلسفة وما لف لفهما، ومن هنا يبدأ تشريع البشر للبشر ووضع التصورات عن الحياة والكون وغير ذلك، وكل ذلك يتبعه ما يتبعه من نتائج في الغالب هي سلبية.

إن الفلسفة أو الحكمة المجردة عن الوحي تقود الإنسان في معظم الأحوال إلى مسائل الإلحاد، أو على أقل تقدير إلى المنهج الناقص الذي لا تستقيم معه الحياة، فالفلسفة والحكمة إنما هما جهد بشري، والجهد البشري –كما أشرنا– يعتريه النقص والخلل، فلا كمال إلا للأمر الصادر عن الله، وليست ثمة سعادة حقيقية ولا استقرار إلا في شرع الله. ومن هنا ندرك خطورة الفلسفة إن تعلقت بأمور العقيدة؛ بالله واليوم الآخر والغيب على وجه العموم، فالمنهج الجدلي أو النظري أو العقلي، كل ذلك –إن ترك بعيدًا عن الوحي المرتبط بالنبوة– فإنه في الغالب يقود إلى الإلحاد والتمرد على الفطرة السليمة التي فطر الله الإنسان عليها.

[٢٧] النورسي. **الكلمات**، مرجع سابق، ج١، ص٦٣٩.

والنبوة والدين لا يحاربان الفلسفة والحكمة، بل يصوّبانهما كي يكونا في مصلحة الإنسانية، وذلك حين تنقاد العلوم كلها للدين، وتصب في مصلحة البشر، حين لا يعيش الإنسان تناقض الأفكار وتصادمها، فتكون حياته مستقرة مثمرة، وهذا الذي يدعو إليه الدين والنبوة.

إنه لا يمكن للفلسفة وحدها أن تعطينا المفاهيم عن كل ما حولنا، فثمة فرق بين الفلسفة والدين، فهذا القرضاوي يرى نقلاً عن شيخه محمد عبد الله دراز، أن الفلسفة فكرة هادئة باردة، أما الدين فهو قوة دافعة فعالة خلاقة. وغاية الفلسفة المعرفة، وغاية الدين الإيمان، ومطلب الفلسفة فكرة جافة، ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين روح وثابة وقوة محركة. ويقول: "إن غاية الفلسفة نظرية، حتى في قسمها العملي، وغاية الدين عملية، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما، وأين هما، ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذي تعرفه، والخير الذي تحدده. أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه."[٢٨]

ولعل نظرة تاريخية إلى صراع الفلسفة والدين تؤكد كيف عاش الناس في حيرة من أمرهم، وذلك أن الفلاسفة يقولون إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها؛ أي ندركها ونعرفها، ونريد التوفيق بين الدلائل العقلية والسمعية، بين الشريعة والفلسفة.[٢٩] وما اليونان ولا حتى الفلسفة في العصر الإسلامي عنا ببعيدة، حين قادت بعض الحكماء إلى الإلحاد بوضعهم تصورات بعيدة عن الأدلة السمعية واقتصروا فيها على الأدلة العقلية.

أما إذا جئنا إلى هداية القرآن ومقاصده، فإننا نرى الفرق بين الوحي والهوى، بل نرى نتائج الهوى البشري، فكثيرًا ما يذكر القرآن الهوى والأهواء، وما ستؤول إليه أمور الأشياء لو اعتمدت على أهواء الناس، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ

---

[٢٨] القرضاوي، يوسف. **مدخل لمعرفة الإسلام: مقوماته، خصائصه، أهدافه، مصادره**، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٩٩٦م، ص٣٣-٣٤.

[٢٩] ابن أبي العز الحنفي. **شرح العقيدة الطحاوية**، مرجع سابق، ص٧٠-٧١.

وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾ (المؤمنون: ٧١)، وقال عن الظالمين: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ (الروم: ٢٩)، وقال مفرقًا بين المهتدي والضال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ (محمد: ١٤)، وقال عن الكافرين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (محمد: ١٦)، وقال عن المضلين: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ (الأنعام: ١١٩).

وما أبشع ما صنع بنو إسرائيل حين حكّموا أهواءهم في أنبيائهم، فقتلوا وكذبوا وفقًا لها، قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧)، وقال: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُهُمۡ فَرِيقٗا كَذَّبُواْ وَفَرِيقٗا يَقۡتُلُونَ﴾ (المائدة: ٧٠).

ونودّ هنا نقل شيء من كلام لابن خلدون يعرّف من خلاله هذا المنحى في التفكير البشري؛ إذ يقول في الفصل الرابع والعشرين من مقدمته عن إبطال الفلسفة وفساد منتحلها: "هذا الفصل وما بعده مهم لأنَّ هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير، فوجب أن يُصدع بشأنها ويُكشف عن المعتقد الحق فيها، وذلك أن قومًا من عقلاء النوع الإنساني زعموا أن الوجود كله، الحسي منه وما وراء الحسي تُدرَك أدواته وأحواله بأسبابها وعللها بالأنظار الفكرية والأقيسة العقلية، وأن تصحيح العقائد الإيمانية من قبل النظر لا من جهة السمع، فإنَّها بعض من مدارك العقل، وهؤلاء يسمَّون فلاسفة، جمع فيلسوف، وهو باللسان اليوناني محب الحكمة، فبحثوا عن ذلك وشمروا له وحوّموا على إصابة الغرض منه ووضعوا قانونًا يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل، وسموه بالمنطق...."[٣٠]

وإذا تحدثنا عن جانب العقل، فكثير من الناس في أيامنا هذه يتحدثون عن إمكانية الاستغناء عن الأنبياء والرسل والرسالات بالعقول، محتجين بأنها هبة الله لنا، وأننا من دونها لن نكون مكرّمين، وأن ما جاء به الأنبياء صار قديمًا لا يصلح لزماننا هذا. "...

[٣٠] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، بيروت: دار القلم، ط٤، ١٩٨١م، ص٥١٤، ٥١٥-٥١٩.

ومن هنا شرّع الناس لبعضهم، وحللوا وحرموا، وهم بذلك يقلدون أقواماً سبقوهم في الضلال، كالبراهمة المجوس القائلين بأن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل، لأن ما جاءت به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسنًا عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان مخالفًا قبيحًا، فإن احتاج إليه فعله وإلا تركه."[٣١]

وعلى النقيض من هؤلاء نجد من يعترف بوجود العقل ولكنه ينكر معارفه العقلية وحقائقه العلمية، ولا يقيم وزنًا لإدراكاته، ومن هؤلاء طائفة السوفسطائيين، من فلاسفة اليونان القدامى. وذهب مذهبَهم بعض الشيعة الإسماعيلية القائلون بأن النظر غير كاف في اكتساب المعارف، وبنوا مسألة وجوب الرجوع إلى الإمام المعصوم عليها، ومن هؤلاء أيضًا بعض المتصوفة الذين جعلوا الإلهام طريق المعرفة وليس العقل.[٣٢]

فإذا جئنا إلى القرآن الكريم نجده قد بين منزلة العقل في التفكر والتدبر، فأوَّلُ آيات أنزلت إنما تتحدث عن القراءة والعلم والكتابة. وقد ذكر الله على ألسنة رسله ما يعتمدون فيه على عقولهم في جانب الهداية، فمخلوقات الله دقيقها وعظيمها، والحجة الدامغة فيما كان بينهم من نقاش في الله تعالى.

لقد اعتنى القرآن عناية واضحة بضرورة استخدام الإنسان لعقله، ولحواسه، ودعاه إلى النظر إلى عدة أشياء؛ إلى الطعام وأصل خلقه والسماوات والتاريخ ومخلوقات الله والنواميس الاجتماعية والطبيعة، وكيفية بدء الحياة الأولى، الخ،[٣٣] ودعاه القرآن إلى أن يحرك سمعه ويحسن استخدامه،[٣٤] وطلب منه تحريك البصيرة لتوافق كل مسموع أو

[٣١] الأشقر. **الرسل والرسالات**، مرجع سابق، ص٣٥ بتصرف. نقلاً عن:
- السفاريني. **لوامع الأنوار البهية**، دمشق: مؤسسة الخافقين، ط٢، ١٩٨٢م، ج٢، ص٢٥٦.

[٣٢] الدوري، قحطان، وعليان، رشدي. **أصول الدين الإسلامي**، عمّان: دار الفكر، ط١، ١٩٩٦م، ص١٧٧-١٧٩. وقد بين المؤلفان رد كل من الغزالي وابن حزم على هذه الآراء.

[٣٣] والآيات في ذلك كثيرة، انظر على سبيل المثال الآيات: (الإسراء:٣٦)، (عبس:٢٤)، (الطارق:٥)، (الأعراف:١٨٥)، (يونس:١٠١)، (ق:٦)، (الروم:٩)، (غافر:٨٢)، (محمد:١٠)، (الغاشية:١٧)، (المائدة:٧٥)، (الأنعام:٤٦)، (الأنعام:٦٥)، (الإسراء:٢١)، (الروم:٥٠)، (الأنعام:٩٩)، (العنكبوت:٢٠).

[٣٤] والآيات في ذلك أيضًا كثيرة منها على سبيل المثال: (الأنفال:٢١، ٢٣)، (الجن:١، ١٣)، (البقرة:٩٣، ١٧١، ١٨١)، (المائدة:٨٣)، (القصص:٥٥، ٧١)، (فاطر:١٤)، (فصلت:٢٦)، (مريم:٤٢)، (الأنبياء:٤٥)، (الجاثية:٨).

مشاهَد،[٣٥] ودعاه القرآن إلى تحريك العقل،[٣٦] وإلى التفكير العميق،[٣٧] وإلى التفقه،[٣٨] ودعا القرآن إلى أسلوب البرهان والحجة والجدال الحسن،[٣٩] الخ.

وفي هذا المجال أيضًا ما يمكن أن يكون اجتهاد العقل في فهم بعض نصوص الشرع مما لم يكن قطعي الدلالة، فللعقل إبداعاته في الاستنباط والفهم.

وجانب آخر وميدان فسيح للعقل هو الإبداع في أمور الحياة، وهذا لا يعارضه الدين بل يطلبه، وهو مما يندرج في إعمار الأرض وضرورة الارتقاء البشري في حياته.

ومن هنا ندرك بطلان ما ذكره بعض الناس من ضرورة استغناء العقل عن الوحي والشرع، فلا استغناء لأحدهما عن الآخر، فالعقل ضروري للفهم، والوحي ضروري للضبط. وبهما يعيش الإنسان في السعادة المأمولة، وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كما بينها القرآن.

ولعل الأمثلة على ذلك كثيرة، نأخذ منها على سبيل المثال قصة إبراهيم مع أبيه الواردة في سورة الأنعام،[٤٠] ومحاجته للنمرود الواردة في سورة البقرة،[٤١] وقصته مع قومه في تحطيم التماثيل وبطلان أن تكون آلهة، وقد وردت في سورة الأنبياء.[٤٢] ومثال آخر هو قصة ذلك المؤمن من آل فرعون وقد كتم إيمانه، وكيف اعتمد على المناظرة والنقاش

---

[٣٥] مثالها الآيات التالية: (الأنعام:١٠٤)، (القصص:٧٢)، (الذاريات:٢١)، (الطور:١٥)، (البقرة:١٧)، (الأعراف:١٩٨)، (يونس:٤٣)، (يس:٩).

[٣٦] كالآيات: (البقرة:١٧١، ٢٤٢)، (العنكبوت:٤٣)، (الأنفال:٢٢)، (يونس:٤٢)، (الحج:٤٦).

[٣٧] مثالها الآيات: (الروم:٨)، (الأنعام:٥٠)، (البقرة:٢٦٦)، (سبأ:٤٦)، (آل عمران:١٩١)، (الأعراف:١٧٦)، (النحل:٤٤)، (الحشر:٢١).

[٣٨] كما في الآيات التالية: (هود:٩١)، (طه:٢٨)، (النساء:٧٨)، (الأنعام:٢٥، ٦٥، ٩٨)، (الأعراف:١٧٩)، (التوبة:٨٧، ١٢٢) وغيرها.

[٣٩] كما في الآيات التالية: (النساء:١٧٤)، (المؤمنون:١١٧)، (البقرة:١١١)، (النمل:٦٤)، (القصص:٣٢، ٧٥)، (الأنعام:٨٣، ١٤٩)، (هود:٣٢)، (النحل:١١١، ١٢٥)، (العنكبوت:٤٦)، (الحج:٨).

[٤٠] الآيات: (الأنعام:٧٤-٨٣).

[٤١] (البقرة::٢٥٨).

[٤٢] الأنبياء:٥١-٧٠).

المنطقي من أجل نصرة الحق،[٤٣] وهكذا في جوانب مختلفة من قصص بعض النبيين في القرآن.

إن النظرة الصحيحة للعقل هي أنه محتاج في قيادة القوى الإدراكية البدنية إلى ما هو خير له في الحياتين: الدنيا والآخرة، وإلى مُعين يستعين به في أمور الإيمان وبيان الخير والنفع والضر، وتحصيل وسائل السعادة، وهذا المعين يجب أن يكون من جنس البشر، حتى يفهموا بيانه، وصدق الله؛ إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤).[٤٤]

إن العلم وحده لا يكفي في إسعاد البشرية وتنظيم أمورها، فهو ما زال عاجزًا عن معرفة أسرار الكون والحياة، وأغلب آرائه ظنية، وخير دليل على ذلك ما قرأناه عن نظريات علمية أريد لها أن تسود، ولكن سرعان ما ثبت بطلانها أو على الأقل نقصها، وهكذا هي طبيعة البشر وتفكيرهم، فالكمال لله وحده سبحانه.[٤٥]

إن العلم قد يقوّي في الإنسان الجانبَ الماديَّ إلى حد بعيد، ولكنه قد يضعف الجانب الروحي فيه إلى أدنى مستوى، يقول القرضاوي: "فقد أعطى العلم الإنسان جناحي طائر فحلّق في الفضاء، وأعطاه خياشيم حوت فغاص في أعماق الماء، ولكنه لم يعطه قلب إنسان. وحين يعيش الإنسان في الحياة بغير (قلب الإنسان) تستحيل أدوات العلم في يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرْهب، وإلى معاول وألغام تنسف وتدمر".[٤٦]

وقد بيّن مجموعة من العلماء الغربيين ضرورة حاجة البشرية إلى ما هو زيادة على العلم، فالعلم قاصر عن إدراك ما وراء الطبيعة، بل ما يجلب السعادة الحقيقية للبشر.

---

[٤٣] الآيات (٢٨-٤٤) من سورة غافر.

[٤٤] الدوري، ورشدي. **أصول الدين الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٨٣.

[٤٥] ولعل أقرب مثال على ذلك نظرية دارون. انظر في هذا:

- العظمة، عزيز. **العلمانية من منظور مختلف**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، ١٩٩٢م، ص١٤٨.

[٤٦] القرضاوي. **مدخل لمعرفة الإسلام**، مرجع سابق، ص٣٠.

يقول بول كلارنس: "... وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء، من الذرة إلى الأجرام السماوية، ومن الميكروب الدقيق إلى الإنسان، تبين لي أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً أو تكشف عن أسرارها النقاب"، ويقول وليام جيمس: "إن علمنا ليس إلا نقطة، وإن جهلنا بحر زاخر، والأمر الوحيد الذي يمكن أن يقال بشيء من التأكيد هو أن عالم معرفتنا الطبيعية الحالية محاط بعالم أوسع منه من نوع آخر، لم ندرك خواصه المكوّنة له"، ويقول آينشتاين: "العلم يخبرنا بما هو كائن، ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون"، ويقول كريسي موريسون بأنه بدون الإيمان فإن المدنية ستفلس، وسينقلب النظام إلى فوضى، وسيضيع كل ضابط، وسيسود الشر العالم.[٤٧]

ولا شك في أن ما وصل إليه هؤلاء من خلال تجربتهم العملية إنما هو الإشارة إلى الوحي، وطريق الوحي البديهي إنما هو عن طريق النبوة.

٤. النبوة تأكيد لخطاب النفس الأخلاقي وتحفيز لها وتعزيز وتهذيب:

لسائل أن يسأل: ماذا لو عاش الناس بلا منهج ينظم شؤونهم، ويحفظ حقوقهم، ويربي سلوكهم، مع العلم بأنَّ الإنسان مع تكريمه وتفضيله على غيره من المخلوقات إلا أنه هُدِيَ النجدين، وألهمت نفسه الفجور والتقوى، ونفسه أمّارة بالسوء وتوسوس به، والشيطان يوسوس له، وغير ذلك من الأمور التي لربما لا تضبط سلوكه لو خُلِّي بينه وبين رغباته، وهو في حقيقة الأمر كتلة من الغرائز والدوافع التي تتطلب إشباعها بأية وسيلة. إنه لا بد من توجيه لهذا الإنسان وتربيةٍ وتهذيب، ولا بدّ من ترغيب وترهيب وتبشير وإنذار، وإلا كانت البهيمية الراكضة وراء الشهوات.[٤٨]

ولنا أن نسأل أيضًا: لماذا احتوت شرائع الأنبياء قسطًا من التوجيهات الأخلاقية، والدين في عمومه هو عقيدة وشريعة وأخلاق؟ والجواب هو أهمية ضبط العلاقة بين البشر

---

[٤٧] انظر هذه الأقوال وغيرها "مترجمة" عند:
- الدوري، ورشدي. **أصول الدين الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٩٣-١٩٦.

[٤٨] حبنكة. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص٢٧٣، ٢٧٥.

وضرورة التخلق بالأخلاق الربانية التي ترفع مكانتهم وتسمو بهم وتوجههم إلى الغاية التي خلقوا من أجلها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، والأخلاق في الإسلام وفي أي دين إنما هي مرتبطة بالعقيدة لا بالأمور النفعية والمصلحة، إنها بناء ثابت متين تماماً كالعقيدة.

ويشير العلماء إلى مثل هذه المعاني، فيقول النورسي مثلاً: "... بينما الذين هم في مسار النبوة: فقد حكموا حكمًا ملؤه العبودية الخالصة لله وحده، وقضوا أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة -التي يأمر بها الله سبحانه- وأن يعلم الإنسان عجزه فيلتجئ إلى قدرته تعالى، ويرى ضعفه فيحتمي بقوته تعالى، ويشاهد فقره فيلوذ برحمته تعالى، وينظر إلى حاجته فيستمد من غناه تعالى، ويعرف قصوره فيستغفر ربه تعالى، ويلمس نقصه فيسبح ويقدس كماله تعالى."[٤٩]

إنها الأخلاق الربانية الكاملة، إنها ارتباط العبد بربه وشعوره بالنقص دائمًا وأنه بحاجة إلى الله، وهذا من مظاهر العبودية التي ترفع الإنسان وتكمله فيصلح أمره في نفسه، وتصلح الحياة كلها مع صلاحه. وفي هذا يقول الإمام محمد عبده: "إن هذه الحياة الاجتماعية الإنسانية لا يستقيم فيها التعاون بين الأفراد ولا بين الجماعات إلا بالأخذ بتعاليم اعتقادية وأدبية وعملية لا تختلف فيها الأهواء والشهوات، لأن الوازع فيها نفسي وجداني لصدورها عن الرب الحكيم العليم."[٥٠]

ولا بدّ من أن نعلم بجلاء أن من القواعد المقررة للنبوة في حياة الإنسان الشخصية: التخلق بأخلاق الله، والأنبياء خير قدوة في هذا، فالأنبياء هم القدوة، ولا بد للناس من نماذج يقتدون بها وهم يقومون بإصلاح أفرادهم ومجتمعاتهم،[٥١] وقد عرف كل قوم نبيهم وأنه في أعلى درجات الخلق القويم، ويستحيل في العقل أن يكون النبي؛ أي نبي، قد جُرِّب عليه كذب أو خيانة أو أي شيء ولو من خوارم المروءة.[٥٢]

[٤٩] النورسي. **الكلمات**، مرجع سابق، ج١، ص٦٤٢.
[٥٠] رضا. **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٣.
[٥١] حبنكة. **العقيدة الإسلامية وأسسها**، مرجع سابق، ص٢٧٦.
[٥٢] ابن تيمية. **كتاب النبوات**، مرجع سابق، انظر المقدمة، ص٢٤-٢٥.

أما ما يفتريه بعض اليهود والنصارى من إجازة الصفات القبيحة والذنوب العظيمة على الأنبياء، ما هو إلا نتيجة لسوء اعتقادهم فيهم، كيف لا وقد قتلوا الأنبياء بناء على تحكيم أهوائهم، فقد زعم اليهود أن أبناء يعقوب وسليمان عبدوا الأصنام، وأن هارون قدم قربانًا للشيطان، وأن موسى صنع تمثال حية من نحاس لشفاء كل لديغ، وأن هارون صنع عجلًا من ذهب، وأن الله أمر النبي أشعياء بالدعوة وهو عارٍ، وأن النبي حنينيا يكذب على الله، وأن الأنبياء كذبوا على بعضهم، وأن الأنبياء أمروا بالقتل والتمثيل، وأن بعضهم زنى أو سكر أو اغتصب أو سرق، الخ.[٥٣]

ولا بدّ من أن نذهب إلى أبعد من العلاقة بين البشر أنفسهم، حين نجعل دستور الأخلاق يعم الناحية الاجتماعية كلها، ومنها دستور التعاون بين سائر المخلوقات، وقد بين ديننا الحنيف أصول التعامل مع الحيوانات حيث الرحمة والإحسان.

وأخيرًا، مهمَّة تأكيد خطاب النفس الأخلاقي وتحفيزه وتهذيبه، مهمة الأنبياء في جلب السعادة لهذه البشرية وتربيتها، ولنتذكر قول حبيبنا محمد ﷺ: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق،"[٥٤] وقد وصفت عائشة خلقه ﷺ لما سئلت عنه فقالت: "إن خُلُق النبي ﷺ كان القرآن،"[٥٥] فالأخلاق هي خلاصة التوجيه الديني، وما أكثر ما نشاهد من تناقض المواقف في الشخصية المسلمة، حين يكون الإنسان عابدًا قائمًا بواجباته ولكن تنقصه الآداب والأخلاق، وكأنها مسألة لا علاقة لها بالدين، ولعمر الله، فهي المهمة التي قام بها الأنبياء في أن يكونوا هم أنفسهم قدوة لغيرهم فيما نسميه الشخصية المتكاملة المتربية على المنهج الشمولي. وفي ذلك يقول الشيخ محمد قطب: "إن الدين هو المنبع

[٥٣] تجد هذه الأمور كلها في: سفر الخروج: إصحاح ٣٢ نص (١-٦)/ سفر العدد: إصحاح ٢١ نص (٤-٩)/ سفر صمؤيل: إصحاح ١١ نص (١-٢١)/ سفر صمؤيل الثاني: إصحاح ١٣ نص(١-٢٢)/ سفر أرميا: إصحاح ٢٣ نص(١١-١٦)/ سفر الخروج: إصحاح٢٢ نص(١-٦)/ سفر التكوين: إصحاح٢٧ نص(٢٥-٢٦)/ سفر الحكمة: إصحاح١٤/ سفر أرميا: إصحاح ٢٨ نص(١-١٧). انظر:
- دار الكتاب المقدس، القاهرة، الإصدار الرابع، ٢٠٠٩م.

[٥٤] رواه البخاري في الأدب المفرد، والحاكم في المستدرك، والبيهقي، من حديث أبي هريرة، وهو صحيح. انظر:
- السيوطي، جلال. **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١، ج١، ص١٠٢.

[٥٥] مسلم. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ح٧٤٦.

الطبيعي للأخلاق، فإذا جفف هذا المنبع أو جف بسبب من الأسباب فلا بد أن يتبعه حتمًا انهيار تدريجي في الأخلاق ينتهي إلى اللا أخلاق."[٥٦]

ولا بدّ في هذا السياق من التطرق إلى بعض ما يتصوره دعاة العلمانية من مفاهيم حول الأخلاق، فمن أقوال العلمانيين إن الأخلاق لا بدّ أن تكون لصالح البشر في هذه الحياة الدنيا، ولا بدّ من استبعاد كل الاعتبارات الأخرى المستمدة من الإيمان بالله أو بالحياة الآخرة، لأن العلمنة هي صبغ الفنون والدراسات بصبغة علمانية غير مقدسة.[٥٧]

وفي المقابل نجد المنصفين من علماء الغرب يقرون بحقيقة الحاجة إلى القيم الدينية، فليس العلم وحده الطريق إلى السعادة الحقيقية، ففي هذا السياق يقول كامبل فلامريون: "إن من التناقض البيِّن أن نرى أن الرقي الذي حصل في العلوم لا مثيل له في التاريخ،... فبينما رفع هذا عقولنا إلى الدرجات العالية، أهبط إنسانيتنا إلى أخس الدركات، ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم، تنطفئ حرارة قوتنا، وتنصرم زهرة حياتنا القلبية بتأثير المطامع المادية والشهوات الجسدية."[٥٨]

ويقول القرضاوي: "لقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقرار التاريخ، أن العقيدة الدينية لا يغني غناءها شيء في تربية الضمير وتزكية الأخلاق، وتكوين البواعث التي تحفز على الخير، والضوابط التي تردع عن الشر، حتى قال بعض قضاة العصر في بريطانيا -وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة، رغم تقدم العلم، واتساع الثقافة، ودقة القوانين- "بدون أخلاق لا يوجد قانون، وبدون إيمان لا توجد أخلاق"."[٥٩]

وحين نبتعد عن النبوة والوحي نرى تشريع الناس لبعضهم بعضاً، واجتهادهم في تكييف الأخلاق وفق تصوراتهم، ولا نعجب حينئذ من صنيعهم حين يعتمدون على

---

[٥٦] قطب، محمد. **العلمانية**، الرياض: دار الأفق، ط١، ١٩٩١م، ص٧٣.

[٥٧] المسيري، عبد الوهاب. **العلمانية تحت المجهر**، بالاشتراك مع: عزيز العظمة، دمشق: دار الفكر، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٩.

[٥٨] انظر كلامه هذا في:

- الدوري، ورشدي. **أصول الدين الإسلامي**، مرجع سابق، ص١٩٥.

[٥٩] القرضاوي. **مدخل لمعرفة الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٠.

أفكارهم وهواهم، فهذا نيتشه يقسم الإنسان إلى أعلى وأدنى، ويقسم الأخلاق إلى قسمين، قسم للسادة لا يقبله العبيد، وقسم للعبيد لا يقبله السادة، فليس بين الفريقين جامعة إنسانية تلتقي بهم في صفة من الصفات، بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز، ولا يحسن بالمتسلط أن يقبل من العاجز غير الخنوع والهبوط في الذلة، من هاوية إلى هاوية، لا نهاية لها غير الانقراض والفناء.[٦٠]

٥. النبوة مصدر كشف النفس البشرية على حقيقتها ومخاطبتها بما يصلحها وتأهيلها لقيادة البشرية:

وهنا لا بدّ من معرفة حقيقة الإنسان في طباعه وآماله وتميزه، فحكمة الله تعالى التي تتطلب نفي العبثية واللهو في أفعاله، وعدم إهماله شيئًا ما في مخلوقاته، راعت حاجة البشرية إلى مرشد، وهذا يؤكد أهمية النبوة للبشر. فالإنسان يدرك قصور نظره في غالب أمره، وكثرة أوهامه، وافتقاره في تركيبته الإنسانية إلى كثير مما يصلح شأنه، فهو ليس كاملًا، بل فيه من صفات النقص الشيء الكثير، وهذا يدل على حاجته الماسة إلى نبي مرشد يحافظ على موازنة النظام المتقن في هذا العالم.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة حقيقة النفس الإنسانية في هذه الشؤون،[٦١] إلا أن هذه الجوانب لا تحط من قيمته، بل تبين حقيقة تركيبته، فالإنسان مكرم مفضل كما بينا، ومن واقعية الإسلام أنه يتعامل مع الإنسان كإنسان، فهو لا يعامله بوصفه مخلوقاً معصوماً أو على أنه ملاك، أو أن البشر جميعًا في درجة واحدة من الصفات الإيجابية. وفي المقابل فلا ينظر الإسلام إلى الإنسان على أنه حيوان، يجوز عليه كل ما يجوز على الحيوانات، بل إنها النظرة الشمولية للإنسان كما خلقه الله تعالى، وبيّن القرآن هذه الصفات السلبية للإنسان التي ظاهرها أنها ذم له، وهي في الحقيقة خصائص يجب عليه أن يراعيها في شخصيته.

---

[٦٠] العقاد، عباس محمود. **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، القاهرة: نهضة مصر للنشر، ط١، ص٢٤٣. وقد رد العقاد في هذا الكتاب، في الفصل المتعلق بالأخلاق، على بعض العلماء والفلسفات، حين تصوروا الأخلاق من منظور العقل والهوى.

[٦١] (النساء:٢٨)، (هود:٩)، (إبراهيم:٣٤)، (النحل:٤)، (الإسراء:١١)، (الإسراء:٦٧)، (الإسراء:١٠٠)، (الكهف:٥٤)، (الأحزاب:٧٢)، (الانشقاق:٦)، (العلق:٦-٧)، (العاديات:٦).

ثم إن استعدادات الإنسان وآماله ورغباته وأفكاره وتصوراته وقوة شهوته غير المحدودة، هي أمور موجهة نحو الأبد، فهو لا تشبعه إلا السعادة الأبدية المكنونة في نفسه، فهذه النظرة البعيدة في الميول والآمال لا يضبطها تشريع البشر لبعضهم بعضاً. فعدم كفاية القانون البشري لهذه الاستعدادات المنبثقة عن طبيعة الإنسان تحتاج إلى شريعة إلهية تراعي هذه الطبيعة الإنسانية، وتحقق له سعادة الدارين معاً، كيف لا وهي من عند خالقه الأعلم به وبرغباته وحقائق نفسه، والذي أتى بالشريعة هو النبي ﷺ.[٦٢]

إنه لا بدّ من جولة حقيقية في أعماق النفس الإنسانية، كي نحلل تحليلًا دقيقًا ميول الإنسان وتطلعاته، ومن ثمّ استحالة أن يشرِّع لنفسه في ظل هذه الطبيعة التي فطر عليها، ولا بدّ أثناء البحث عن سعادته الحقيقية من أن يسير وراء منهج يقوده إلى النور، ومن ثمّ إلى السعادة الحقيقية في الدارين. وفي هذا يقول الإمام محمد عبده: "إن الإنسان محتاج – بمقتضى تلك العقيدة والشعور النوعي العام بالبقاء والانتقال من طور إلى آخر في الحياة– إلى هداية يستعد بها للحياة الآخرة الباقية، وهي من عالم الغيب الذي لا يدرك من أمره شيئًا، فيستقل عقله في العلم بما يجب عليه من الاستعداد له، فلا بدّ أن تكون هذه الهداية من عند الله تعالى الذي خلقه للبقاء الذي يعقله في الجملة، لا للزوال والعدم المحض الذي لا يُعقَل ولا يتصور ولا يتخيل، وإنما عاقبة الموت انحلال هذه الصورة الجسدية، وتفرُّق هذه المركّبات المادية، فالله هو العليم بما يصلح به حاله في تلك الحياة، وتأبى حكمته ورحمته وجوده وإتقانه لكل شيء خلقه وتنزهه عن الباطل والعبث أن يحرمه هذه الهداية."[٦٣] ويقول ابن تيمية: "الأنبياء جاؤوا بما تعجز العقول عن معرفته [يقصد بمفردها] ولم يجيئوا بما تعلم العقول بطلانه، فهم يخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول."[٦٤]

---

[٦٢] النورسي، بديع الزمان. **صيقل الإسلام**، تحقيق وترجمة: إحسان الصالحي، استانبول: دار سوزلر، ط١، ١٩٩٥م، ج٨، ص١٣٨-١٣٩.

[٦٣] رضا. **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٣.

[٦٤] ابن تيمية، تقي الدين أحمد. **مجموع الفتاوى**، جمع: عبد الرحمن محمد قاسم، الرياض: الرئاسة العامة لشؤون الحرمين، ط٦، ١٤٠٩هـ، ج٢، ص٣١٢.

وفي هذا الصدد لنا أن نتساءل عما نشاهده من سعادة المجتمعات اللا دينية وتقدمها، فهل هذه علامة على صدق منهجهم اللا ديني وخطأ المنهج الديني؟ وللإجابة عن ذلك يقول النورسي: "الجواب: إن تلك العدالة والانتظام إنما هما بتذكير أهل الدين وإرشاداتهم، فأسس العدالة والفضيلة شيّدها الأنبياء عليهم السلام؛ أي إن الأنبياء هم الذين أرسوا تلك القواعد والأسس، ثم أخذ هؤلاء بالفضيلة وعملوا بها ما عملوا، زد على ذلك فإن نظامهم -وكذا سعادتهم- ليس دائماً بل مؤقتاً، فهو إن كان قائماً ويستقيم من جهة، فهو منحرف ومائل من جهات كثيرة؛ أي إنه مهما يبدو منتظماً في صورته ومادته ولفظه ومعاشه إلا أنه في سيرته ومعناه وروحه فاسد ومختل."[٦٥]

وبمثل ذلك يقول رشيد رضا: "... وقد علَّمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية في الأرض إلا على أساس الدين، حتى مدنيات الأمم الوثنية، كقدماء المصريين والكلدانيين واليونانيين، وعلَّمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عز وجل لهدايتها. فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها، كما سرت إلى من بعدهم من أهل الديانات...."[٦٦]

وكما يقول النورسي: "فهناك اعتدال مزاج الإنسان، ولطافة طبعه، وميله إلى الزينة؛ أي ميله الفطري إلى العيش اللائق بالإنسانية، فهو لا يعيش عيش الحيوانات، ولا يسعه ذلك فهو محتاج لتحصيل حاجاته في مأكله وملبسه ومسكنه إلى تلطيفها وإتقانها بصنائع جمة، فلا يقتدر هو بانفراده عليها كلها، ولهذا احتاج إلى الامتزاج مع أبناء جنسه، ليتشاركوا فيتعاونوا، ثم يتبادلوا ثمرات سعيهم. ولكن لتجاوز قوى الإنسانية على الآخرين تحتاج الجماعة إلى العدالة في تبادل ثمرات السعي، فعقل كل واحد لا يكفي في إدراك العدالة، ومن ثم احتاج النوع إلى وضع قوانين كلية.

ثم لمحافظة تأثيرها ودوامها، لا بد من مقنن يجريها، ثم لإدامة حاكمية ذلك المقنن في الظاهر والباطن يحتاج إلى امتياز وتفوق، ويحتاج أيضًا إلى دليل على قوة المناسبة بينه وبين

[٦٥] النورسي. **صيقل الإسلام**، مرجع سابق، ج٨، ص١٣٩.
[٦٦] رضا. **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج٤، ص٤٢٨.

الله، ثم لتأسيس إطاعة الأوامر وتأمين اجتناب النواهي يحتاج إلى إدامة تصور عظمة الصانع وصاحب الملك في الأذهان، ثم لإدامة التصور ورسوخ العقائد يحتاج إلى مُذكِّر مكررٍ وعمل متجدد، وما المذكِّر المكرِّر إلا العبادة، وهذه العبادة توجه الأفكار إلى الصانع الحكيم، وهذا التوجه يؤسس الانقياد، والانقياد هو للإيصال إلى النظام الأكمل والارتباط به. وهذا النظام الأكمل يتولد من سر الحكمة، وسر الحكمة يشهد عليها إتقان الصنع وعدم العبثية."[٦٧]

وهي إشارة واضحة إلى تجليات النبوة في تحقيق هذا الاستقرار. لقد جعل أهل الحكمة في تصورهم للمثاليات، فملكة معرفة الحقوق التي يراد منها التحسس ماديًا بضرر كل ما هو فاسد من أجل معرفته، وملكة رعاية الحقوق التي يراد منها تنبيه الأفكار، بديلاً عن الدين الإلهي. وإن هذين الأمرين وغيرهما من مبررات الاستغناء عن الشريعة قد أثبت التاريخ فشلهما؛ إذ إن الإنسان لا يمكن أن يعيش المتناقضات ولا المستحيلات التي هي فوق طاقته.

وقد ناقش ابن خلدون بعض هذه الجوانب وهو يتحدث عن الإنسان، وأن اجتماع البشر ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، فيتحدث عن الشرع الإلهي والحكمة التي يتوصل إليها البشر، فيقول عن البشر بأنه: "لا بدّ لهم في اجتماعهم من وازع حاكم يرجعون إليه، وحكمه فيهم تارة يكون مستندًا إلى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادَهم إليه إيمانُهم بالثواب والعقاب عليه، الذي جاء به مبلّغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم، فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاة نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط."[٦٨]

أما دور النبوة في قيادة البشرية وتنظيم أمورها، فإن هذه المسألة من بدهيات ما يشاهَد من دقة صنع الله في مختلف المجالات، وإنه من المحال أن الذي أتقن كل شيء

[٦٧] النورسي. **صيقل الإسلام**، مرجع سابق، ج٨، ص١٣٥-١٣٨.
[٦٨] ابن خلدون. **المقدمة**، مرجع سابق، ص٣٠٢-٣٠٣.

سيترك الإنسان بلا توجيه أو نظام، وهو سبحانه الذي أراده خليفة على هذه الأرض وذلَّلها له واستعمره فيها، يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ (الملك: ١٥)، وقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

وفي هذا السياق يورد ابن خلدون كلاماً للحكماء بأن غير الإنسان قد انقاد وانتظم بمقتضى الفطرة والهداية لا بمقتضى الفكرة والسياسة، والنبوة ضرورية عقلًا لهذا الإنسان، ويقرر الفلاسفة أنه لا بدّ للبشر من الحكم الوازع الذي يكون بشرع مفروض من عند الله، يأتي به واحد من البشر، ولا بد أن يكون متميزًا عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليقع التسليم له والقبول منه.[٦٩]

ولعل تميز الإنسان عن غيره إنما هو بمقتضى التكليف والإرادة التي ركّبها الله في الإنسان، ومن ثمّ ترتَّب عليها فوزه أو خسارته في الآخرة، ومن هنا زوَّده الله بالعقل والاختيار، ولم يتركه بلا توجيه أو تنظيم، فكان إرسال الرسل لهذه الغاية.

وبهذا ندرك أهمية النبوة بوصفها مظهراً من مظاهر التنظيم الذي اتصف به هذا الكون المخلوق لله سبحانه، فلا بدّ للبشر من أن ينتظموا في حياتهم كما انتظم غيرهم من مخلوقات الله سبحانه، وقد تكفَّل الله بهذا الأمر، بإرسال الرسل الذين يقودون البشرية إلى الخير والهداية، ينيرون لهم درب السعادة والطمأنينة، فتنتظم حياتهم وتستقيم، وما سوى ذلك هو الفوضى والتناقض، تماماً كما هو الحال في البشرية المعاصرة. وفي كل وقت كان لا بد فيه من إرسال الرسل، إلا أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، يقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (الأحزاب: ٤٠)؛ إذ اكتملت الرسالات به عليه السلام، وشرعه محفوظ من قبل الله تعالى.

ولا بدّ من أن نشير إلى ما شبَّه به النبيُّ ﷺ النبوةَ؛ إذ شبهها ببيت جميل قد بني ببعث الأنبياء عليهم السلام، وهو الذي أكمل هذه النبوة بشرعه القويم، فقد قال ﷺ:

[٦٩] المرجع السابق، ص٤٣.

"إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين،"[٧٠] وعقب ابن حجر شارحاً: "فكأنه شبه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد الناس ببيت أسست قواعده ورفع بنيانه، وبقي منه موضع به يتم صلاح ذلك البيت."[٧١]

وما أجمل ما ذكره ابن تيمية في هذا الصدد؛ إذ يقول: "وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلا باتّباع الرسول."[٧٢] ويقول: "والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتّباع الرسالة، فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتّباع الرسالة، فإن الإنسان مضطر إلى الشرع، فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره. والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً."[٧٣]

ولابن القيم أيضًا كلام شبيه بهذا؛ إذ يقول: "ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، ...

[٧٠] البخاري. **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ح٣٥٣٥. انظر أيضاً:
- ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٥٥٨.

[٧١] ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٦، ص٥٥٩.

[٧٢] ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**، مرجع سابق، ج١٩، ص٩٧.

[٧٣] المرجع السابق، ص٩٩.

فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير."[٧٤]

وإن معنى قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ (يونس: ٤٧)، واضح في أن تنظيم هذا الكون يستدعي إرسال الرسل إلى كل قوم حتى يبينوا لهم الحق من الباطل والخير من الشر والحلال من الحرام، وكل ذلك من لطف الله بعباده في تنظيم هذا الكون وعدم العبثية فيه.

وقد بينت بعض آيات القرآن ضرورة انقياد البشر للأنبياء، فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤)، ويبين المفسرون أن هذا يكون في حياتهم باتباعهم والسير معهم، وبعد مماتهم بتحكيم ما جاؤوا به من عند الله تعالى.[٧٥]

خاتمة:

يعد هذا الجهد الذي قمنا به في هذا البحث محاولة لإضافة معرفية في مجال الدراسة الموضوعية الكاشفة عن حديث القرآن الكريم عن النبوة؛ إذ التحليل المقاصدي الذي يراد منه الوقوف على أهم المجالات الإنسانية والبشرية التي تحاول الجهود المبذولة اليوم الوصول إليها لترشيد نهضتها وتقدمها.

وبعد بيان أهمية النبوة وحاجة الناس إليها نخلص إلى الضرورة الملحة في حاجتنا إلى إرث النبوة. فلا يمكن الاعتماد على العلم وحده، أو على عقولنا وحدها، كي نصوغ المنهج الأسلم لأنفسنا وللبشرية كلها، من أجل الوصول إلى السعادة الحقيقية في الدارين.

وقد اتضح لنا أن هذا الكون بمظاهره المختلفة، قد أقيم على أسس من الدقة والنظام، وبناء عليه فلا يمكن أن يترك الناس بلا مرشد يرشدهم ويبلغهم رسالة ربهم.

---

[٧٤] ابن قيم الجوزية. **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق: حسن المسعودي، بيروت: المكتبة العلمية، ط١، ١٩٩٨م، ج١، ص١٥.

[٧٥] الشوكاني. **فتح القدير**، مرجع سابق، ج١، ص٥٧٤.

وللرسل دور في إحياء نور المعرفة في عقول الناس لترشدهم إلى استخدام حواسهم في الاستدلال على خالقهم، من خلال آيات الله المبثوثة في الكون والنفس. ولعل الشيء الأعظم في حاجة الناس إلى النبوة أنها حلقة الوصل بين البشر وخالقهم فيما يريد منهم.

لقد أيد الله الرسل بالمعجزات، وهي وسيلة إلى تقريب الناس إلى أنبيائهم وشدهم إلى قوة هي وحدها القادرة على كل شيء. ولو لم تكن النبوة، وهي وسيلة تبليغ الوحي، لَحَكَمَ العقل والفلسفة والحكمة، وهذه كلها قاصرة عن بلوغ كمال سعادة الإنسان واستقراره.

إن الإنسان مدني في طبعه، ولا يمكنه عزل نفسه عن بني جنسه، ولا بدّ من أخلاق تضبط علاقاتهم، ولا بد من قدوة لهم في ذلك، ومَن أفضل من الأنبياء مثالًا وأسوة. كما أن من طبيعة الإنسان سعة إدراكه واستعداده ومزاجه، وذلك يميزه عن بقية المخلوقات، ويحتم عليه أن يضبط أموره، ولا يمكن أن يتأتى ذلك إلا بالوحي عن طريق النبوة. وهذه النبوة الخاتمة في حقيقتها هي الوحي الممثل بالقرآن والسنة، وإن حاجة الناس إلى النبوة تمثل حاجتهم إلى القرآن والسنة.

بقي أن نقول: هناك مجال مهم تثيره هذه الدراسة ويبقى بحاجة إلى بحث علمي، وهو: السعي نحو خطوات عملية نستطيع من خلالها تحقيق هذه المقاصد في واقع الإنسانية اليوم، لتمثل برامج عملية واقعية على مستوى الفرد والجماعات والإنسانية عموماً.